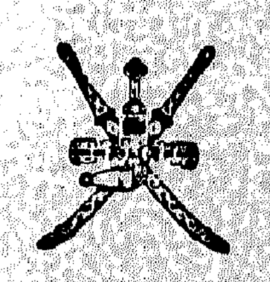
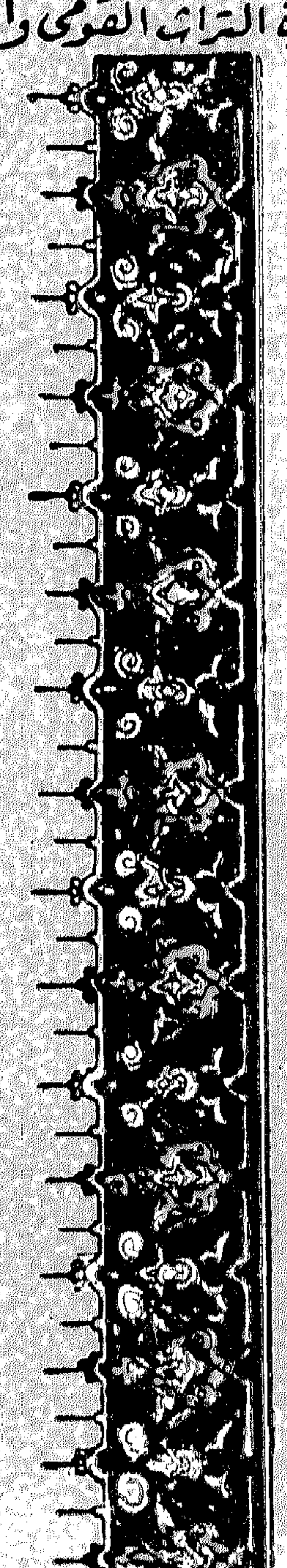


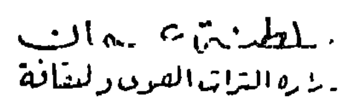
سلطنة عمان
وزارة التراث القومي والثقافة



تراثنا

عُمان
قبل وبعد الإسلام

العــــدد الثاني عشر





تراثنا

عُمان

قبل وبعد الإسلام

المحاضرة التى ألقاها الأستاذ عامر على عمير المرهوبى
فى مهرجان العالم الإسلامى بلندن (أبريل – يونيو ١٩٧٦)

أكتوبر ١٩٨٠



« إنه لمما يثلج النفس أن نرى وللمرة الأولى فى تاريخ أوربا الحديث مجموعة من صفوة العلماء المسلمين تتولى عرض الإسلام ومبادئه وقيمه السامية على العالم الغربى عبر هذا المؤتمر الإسلامى الدولى وعلى هذا النطاق الواسع ..

ندعو الله جل جلاله أن يكلل هذا الجهد والسعى بتوفيق من لدنه، وأن يحقق الهدف من عقده والمتمثل فى تقديم الإسلام فى صورته الصحيحة ، وإبراز معالم حضارته للعالم الغربى » .

قابوس

تقديم

شهدت عمان قبل وبعد الإسلام حضارات عريقة شامخة ، ما تزال آثارها شواهد حية على عظمة الإنسان العمانى ، فقبل الإسلام نبتت على الأرض العمانية أروع الحضارات العربية ، حيث أجمع المؤرخون العرب على الإشادة البالغة بالتقدم الحضارى لمدينة « صحار » قصبة عمان آنذاك فسموها « خزينة الشرق » .

وعندما أشرق فجر الإسلام على يدى الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ، خف أهل عمان إلى تنور الفجر الجديد ، مما حدا بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم إلى أن يقول : « رحم الله أهل الغبيراء (عمان) آمنوا بى ولم يرونى » .

ومنذ ذلك الحين ، وعمان ماضية فى خدمة الإسلام ونشره والذود عن حياضه فى جميع أصقاع المعمورة ، وبالتالى فقد ساهمت عمان مساهمة إيجابية وفعالة فى بناء الحضارة الإسلامية العريقة ، فألف علماؤها الكتب القيمة التى تشرح أصول العقيدة وفلسفتها ، وما يتبعها من عبادات ومعاملات ، والتى تتناول كل صغيرة وكبيرة

من قضايا العلم والمعارف السائدة فى مختلف العصور . ليس هذا فحسب ، وإنما هناك أيضاً مؤلفات فى اللغة والطب والملاحة .

ولا يغيب عن البال أن الخليل بن أحمد وابن دريد والملاح العربى أحمد بن ماجد هم من أهل عمان .

ومن الأدوار التى تعتز بها عمان فى العصر الحديث أنها استطاعت أن تلقن الشيوعية العالمية درساً لا ينسى ، وتحطم صخرة غروره وغطرسته الإلحادية المتهورة .

وهكذا .. فلا تكاد تلوح فرصة لخدمة الإسلام إلا ويكون لعمان دور هام فيها .

وتأكيداً لهذا الدور ، وانطلاقاً من توجهات حضرة صاحب الجلالة السلطان قابوس المعظم حفظه الله ، فقد شاركت عمان مشاركة إيجابية فى مهرجان العالم الإسلامى ، الذى أقيم فى الفترة من أبريل إلى يونيو ١٩٧٦ بالعاصمة البريطانية ، وحضره أقطاب العلم والفكر فى العالم الإسلامى .

وقد وجه صاحب الجلالة السلطان قابوس المعظم رسالة إلى المؤتمر الذى عقد بهذه المناسبة ، حيا فيها المؤتمرين ، وبارك خطواتهم لخدمة الإسلام ، مما كان له أطيب الأثر فى نفوسهم .

وألقى الأستاذ عامر على عمير المرهوبى فى هذا المؤتمر محاضرة قيمة ، تناول فيها مختلف الأدوار والأحداث التاريخية التى شهدتها عمان :

نص المحاضرة

التى ألقاها الأستاذ عامر علي عمير المرهوبي
فى مهرجان العالم الاسلامى بلندن
ابريل - يونيو ١٩٧٦

بسم الله الرحمن الرحيم

حتى وقت قريب لم يكن العالم يعرف إلا النزر اليسير عن عمان، ويعزو بعض المؤلفين عزلة عمان إلى أسباب ندرك الآن أنها بغير أساس ، كما سنرى من خلال محاضرتنا هذه ..

أما اليوم فقد استردت عمان مكانتها بين دول العالم ، وأخذت تخطو خطوات واسعة نحو التقدم وذلك بفضل القيادة المستنيرة لصاحب الجلالة السلطان قابوس المعظم . وهى اليوم تركز جهودها وتعبىء طاقاتها لبناء مستقبلها على أسس متينة من التعاليم الإسلامية التى تنتمى إليها ، مستعينة فى ذلك بالتكنولوجيا الحديثة ومتمسكة فى الوقت نفسه بذاتيتها وبتراثها الإسلامى والعربى .. وهى إذ تمضى قدماً إلى المستقبل فانها لا تنسى ماضيها العريق ، تغترف منه معانى العزة والتطلع إلى المستقبل بثقة لا حد لها .

إن لعمان تاريخاً عريقاً يضرب بجذوره إلى ما قبل الإسلام بعدة قرون . ولقد اعتنق أهل عمان هذا الدين طواعية وبمحض رغبتهم ، وكان لهذا أحسن الأثر فى نفس الرسول عليه الصلاة والسلام .. ولقد ساهم الإسلام فى إثراء التراث العمانى ، كما فتح أمامها آفاقاً واسعة لوضع أسس متينة لحياتها الروحية تنبع من تعاليم الإسلام السمحاء التى بشر بها محمد صلى الله عليه وسلم .

والآن استميحكم العذر فى أن أستهل هذه المحاضرة بعرض سريع لتاريخ عمان قبل الإسلام . وهو جزء يسير مما توفر لنا من بعض المصادر القليلة التى جمعناها من هنا وهناك ، آملين فى أن نتمكن من اكتشاف المزيد من الأدلة والشواهد عن هذا التاريخ استناداً على عمليات البحث والتنقيب الجارية الآن .

من الحقائق المتفق عليها أن سكان عمان الأوائل أقاموا فى قرى منذ العصر الألفى الرابع قبل الميلاد ، أى نحو ستة آلاف عام قبل الآن ، كما كشفت الحفريات الأثرية عن وجود أوان فخارية تم العثور عليها فى بعض مناطق عمان ، الأمر الذى يدل على أن عمان كانت لها إتصالات ببعض الأقطار المجاورة ، وأن موانئها وقراها كانت ملتقى لثقافات وفدت إليها من أقطار أخرى قريبة منها

كالعراق وبلدان الخليج وبلوشستان وفارس وتركستان. ويروى لنا علماء الآثار أن أهل عمان كانوا يستعملون هذه الأوانى .

كما اكتشفت مقابر يرجع تاريخها إلى العصور الغابرة ، وقد تحدثت البعثة الأثرية الدانماركية التى جاءت إلى عمان عام ١٩٧٢ م ، وهى واحدة من عدة بعثات ، فقالت : لقد تم اكتشاف عدد من المقابر مماثلة لمقابر أم النار ، إلى جانب عدد كبير آخر يعود تاريخها إلى العصر الحديدى .

كما اكتشفت بمنطقة عبرى مجموعات من المقابر لها دلالتها الهامة ، وبالتالى فلا وجه للغرابة إن دلت هذه المقابر على وجود مراحل تاريخية عديدة بدءاً بمقابر جمدت نصر للفترة الألفية الرابعة قبل الميلاد ، مروراً بمقابر أم النار للفترة الألفية الثالثة ، إنتهاءاً بالعصر الحديدى للفترة الألفية الأولى .

ومما يثير الاهتمام بوجه خاص أن سكان المستوطنات القديمة فى عمان قد وصلوا إلى درجة كبيرة من الرقى . ولسوف نطلع على نماذج أكثر وضوحاً لهذا التطور من خلال الأبحاث الجارية فى هذا الشأن .

غير أن ثمة من القرائن ما يحمل على الاعتقاد بأن البلاد التى

كانت تسمى مجان إنما هى عمان بالذات ، وإذا صح هذا الاعتقاد كما ترجح هذه الآراء فإن عمان ، أو مجان كما كانت تسمى ، قد دخلت فى علاقات تجارية واسعة مع الحضارات القائمة آنئذ كالعراق ووادى الأندوس .

وفى كتاب « الإمارات المتصالحة » يشير مؤلفه دونالد هولى إلى أن ملوك « أور » الذين عاشوا قبل الميلاد بألفى عام كانوا يتبادلون التجارة مع عمان ، ويصدرون إليها الشعير والملابس مقابل النحاس ، كذلك يشير هولى إلى تجارة العاج والبامبو والأحجار الكريمة وأوكسيد الحديد :

وقد وردت إشارة إلى ازدهار مثل هذه التجارة فى اللوحات التى اكتشفت فى مدينة بابل بالعراق ، وكلها تؤكد أن السفن التجارية العمانية كانت ترتاد موانى « أور » محملة بمختلف السلع والمنتجات ، وكان النحاس من أهم الصادرات العمانية ، وكان يصدر فى مقابل الفضة وزيت الطعام والمنسوجات والمصنوعات الجلدية .

ولقد ورد فى تقرير بعثة من علماء الآثار التابعين لجامعة « هارفارد » ، بعد عمليات مسح قامت بها فى بعض أرجاء عمان

عام ١٩٧٣ : أن هناك من الدلائل ما يشير إلى وجود عمليات لصهر النحاس فى عمان فى أربع من مناطق التنقيب هى سمد والباطنة والظاهرة وأبرا .

كما ارتبط اسم عمان بتصدير كميات من النحاس إلى بلاد ما بين النهرين .

والمناجم الأربعة التى اكتشفتها بعثة هارفارد تقدم أول دليل حقيقى على أن عمان من أوائل البلدان التى كانت تستخرج النحاس .

وتستطرد البعثة فتقول أن هناك أدلة كثيرة تشهد بأن العمانيين كانوا يستخدمون وسائل رى متطورة فى تلك الفترة من التاريخ ، كاقامة السدود الواطئة لحصر المياه الجارية فى منطقة سمد ، وإخصاب الأراضى الزراعية وذلك عن طريق غمرها بالطمى .

كما اكتشفت البعثة بقايا بيوت سكنية كبيرة مقامة فوق أساسات من الأحجار والتحصينات القوية .

وبوجه عام فان كافة الأدلة المتوفرة بهذا الشأن تؤكد ما سبق أن ذكرته من أن عمان كانت مجتمعاً متطوراً فى منطقة الخليج خلال العصر الألفى الثالث قبل الميلاد ، وكان يقوم بفلاحة الأرض على أحدث الأساليب ، كما كان ينتج الأدوات المعدنية للاستهلاك المحلى وللتصدير أيضاً .

كذلك فقد سجلت بعثة « هارفارد » وجود سبع مستوطنات أخرى يعود تاريخها إلى العصر الألفى الأول قبل الميلاد ، تضم مبان من الحجر ، وعثر فى تلك المبانى على أوان وأدوات فخارية ، مما يؤيد أن عمان كانت تلعب دوراً هاماً بالنسبة للمجتمعات الأخرى فى الخليج .

وإذا انتقلنا إلى مرحلة أقرب من التاريخ ، نجد أن اللبان يأتى فى مقدمة صادرات الجنوب العربى فى العصر القديم ، وكان يصل إلى الأقطار البعيدة كروما حيث كانت تجارته رائجة هناك .

ولقد بلغت شهرة اللبان العمانى فى هذه الأصقاع حداً دعا الكاتب الرومانى بلينى إلى أن يصف الجنوب العربى القديم بأنه أغنى بلدان العالم .

وفى الوقت الذى كتب بلينى رأيه هذا كان اللبان العمانى يصدر من بلدة سمهرام فى ظفار وكانت تعرف عند الإغريق باسم موشكا .

ولقد وردت أول إشارة لهذه التسمية فى كتاب «The Periplus of the Erythraean Sea» لمؤلف مجهول يحتمل أن يكون إغريقياً ، وذلك فى نحو القرن الأول بعد الميلاد ، فقد أشار إليه كميناء بحرى أقيم لتصدير منتجات اللبان .

وكانت سفن البلاد الأخرى تتعامل مع رجال الحاشية الملكية على أساس مقايضة اللبان بمنتجات الحنطة والسمسم والمنسوجات .

ويبدو أن هذا الميناء يقع فى منطقة خور روى لوجود أدلة أثرية قوية على ذلك . وقد جاء فى مقال لعالمة الآثار الفرنسية الشهيرة يبرين : « وبالتالى فان موشكا هى بالتأكيد فى خور ظفار الآن حيث توجد منطقة خور روى ، غير أنه لابد من التأكد قبل ذلك مما إذا كان الميناء المشار إليه هو ميناء موشكا بالذات ، أو أنه أحد المستوطنات الأقل أهمية » .

ومن الجدير بالذكر أن اللبان لا يزال يزرع حتى اليوم بكميات وفيرة فى جبال ظفار ، وأن علماء الآثار يواصلون أعمالهم فى منطقة خور روى لمعرفة طبيعة التاريخ القديم لهذه المنطقة . فلا تزال هذه المنطقة مليئة بالأنقاض ، كما أن الكتابات التى عثر عليها هناك تلقى المزيد من الضوء على جانب آخر من التراث العمانى .

والنقطة التى تثير الاهتمام هى محاولة التوصل إلى معرفة تاريخ سمهرام التى كان يعتقد بأن تاريخها يعود إلى القرن الأول بعد الميلاد بينما يسود الاعتقاد الآن بأن هذا التاريخ يعود إلى القرن الأول قبل الميلاد .

أما وقد سردت لكم فى إيجاز تاريخ عمان القديم فإنى أجد نفسى مدفوعاً إلى أن أنتقل بكم إلى الفترة الأقرب من تاريخ هذه البلاد وبذلك نصل إلى لب الموضوع وأعنى به تاريخ عمان العربى الإسلامى.

إننى أخشى أن لا تكون لدينا أدلة تاريخية متسلسلة فى هذا الصدد نسترشد بها فى تحديد قسمات تراث أهل عمان قبل وصول الأزد إليها .. ويقول دونالد هولى فى كتابه « الإمارات المتصالحة » أن عمان استهدفت لموجات متعاقبة من الهجرة من الجنوب . غير أن الأزد بزعامة مالك بن فهم هاجروا إليها فى القرن الثانى قبل الميلاد وإن كان الدليل ينقصنا لإثبات ذلك .

ومن هنا فلابد من الاعتماد على المؤرخين العمانيين وحدهم وعلى الأخص على أشهر هؤلاء المؤرخين ، وهما سرحان بن سعيد ابن سرحان ، وعبد الله بن حميد السالمى ، وقد جاء فى ترجمة إنجليزية الحكاية التى رواها سرحان عن كيفية انتقال الأزد بقيادة مالك بن فهم من اليمن إلى عمان ، وقد وردت فى كتاب مستر هولى .

وتتفق الصيغة التى أوردها السالمى عن غزو مالك بن فهم لعمان مع النقاط الرئيسية فى رواية سرحان فيما عدا أن رواية السالمى لهذه الحكاية أكثر تفصيلا وإيضاحاً ، أو بالأحرى أكثر إيفاء لبطولة

الأزد ، خاصة وأن السالمى قد اعتمدفى روايته على عدد من المؤرخين العرب ، فهو يحدد تاريخ هذا الغزو بألفى سنة قبل الإسلام ، كما يعزى أسباب هجرة الأزد إلى عمان إلى إنهيار سد مأرب فى اليمن الذى كان مصدر خير تلك البلاد ورخائها .

وهذا يزيد من صعوبة إثبات تاريخ هذا الغزو من حيث أن فترة الألفى سنة قبل الإسلام تطابق القرن الخامس عشر قبل الميلاد بينما الاعتقاد السائد أن انهيار السد قد تم خلال القرن الأول أو الثانى بعد الميلاد .

وعلى أية حال فإذا افترضنا أن هذه الرواية عن بطولات الأزد مبالغ فيها ، فإن هناك إجماعاً فى الرأى على أن الأزد احتلوا عمان وأنهم كانوا أول المجموعات العربية الحديثة التى أقامت حكمها فى البلاد بزعامة مالك بن فهم .

وهناك مصدر عربى آخر يرجح أن بعض القبائل العربية كقبيلة عاد وثمود وطسم وجديس قد استوطنت عمان قبل أن يحتلها الفرس بزمن طويل .

وقد أعقب احتلال مالك لعمان فترة من الهدوء والاستقرار تخللتها جهود مركزة لتثبيت دعائم الحكم وإنشاء جهاز حكومى منظم؛

وقد تلا هذا وصول موجات أثر موجات من قبائل الأزد . وهؤلاء هم الذين أطلقوا على هذه البلاد اسم عمان تيمناً باسم أحد الأودية فى اليمن .

وعلى حد قول السالمى فقد أخذ الأزد يتوافدون على عمان حتى ملأوا كل شبر فيها مكونين بذلك وحدة وطنية متماسكة بزعامة قائدهم مالك بن فهم .

وإذا نحينا جانباً عنصر المغالاة فى وصف بطولات الأزد فى ساحة الحروب ، فإن المؤرخين العرب لا يراودهم أى شك فى صدق هذه الروايات .

ويقول مايلز فى كتاب « بلدان وقبائل الخليج » إننا لو أغضضنا الطرف عن بعض المبالغة التى وردت فى كتاب « كشف الغمة » لسرحان بن سعيد ، فإن هذه الروايات قد اعتمدت على القصص المأثورة عن العرب ، وبالتالى فيمكن الاعتماد عليها » .

إن اعترافاً كهذا من كاتب ينتمى إلى الغرب يضفى وزناً كبيراً على كتابات المؤرخين العرب أمثال سرحان ابن سعيد الذى بذل ونخبة من أمثاله جهوداً مضنية لتسجيل تاريخ هذه الأمة .

أما فيما يختص بعرب عمان ، فقد جرى العرف على إرجاع

نسبهم إلى قبيلة الأزد العربية ، بل إن كتب التاريخ العمانى تتضمن أسماء القبائل التى هاجرت إلى عمان وأسماء رجالها ورؤسائها ، كما أن هذه العادة لا تزال متبعة إلى يومنا هذا فى عمان ؟

ولقد أشار السالمى فى مؤلفه « تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان » إلى أسماء رؤساء القبائل العمانية التى نزحت إلى عمان بعد وصول مالك بن فهم إليها ، ممن لا تزال ترتبط بصلة نسب إلى القبائل العمانية الراهنة ، ولعبت دوراً هاماً فى تاريخ هذه البلاد .

ويهتم العمانيون — كغيرهم من العرب — بأنسابهم القبلية اهتماماً كبيراً ، ويحتفظ كثير منهم بشجرة العائلة التى ينتمى إليها ويتوارثها الخلف عن السلف .

ولقد استتبع هجرة قبائل الأزد إلى عمان وصول مجموعات قبلية أخرى من أصل عدنان نزحت من الشمال .

ومن المعروف أن القبائل العمانية تتفرع كلها من قبيلتين عربيتين رئيسيتين إحداهما قبيلة اليمانيين الذين هاجروا إلى عمان بصحبة مالك ابن فهم أو بعده ، والأخرى قبيلة العدنانيين الذين نزحوا إلى عمان من شمال اليمن وذلك بعد هجرة الأزد إليها .

ويسجل السالمى قائمة بهذه المجموعات القبلية مبيناً أسماء زعمائها :

وقد لا تسمح لى هذه المحاضرة بأن أسترسل فى الحديث عن هذا الموضوع . وكل ما أود أن أقوله هو أن هناك عدداً من المؤلفات التاريخية تلقى الضوء على هذه الحقبة من تاريخ عمان ، وعلى موضوع الأنساب القبلية ، وأنه ليسعدنى أن أحيل المهتمين بهذا الموضوع إلى الترجمة الإنجليزية لكتاب سرحان بن سعيد « كشف الغمة » ، وهى بعنوان « تاريخ عمان » ، ويقرر مايلز أن النص الأصلى لهذا الكتاب قد تم تأليفه فى مدينة أزكى الواقعة فى الداخلية ، وقد عثر عليه الكولونيل « أى . سى . روس » فى عام ١٧٢٨ ميلادية ، وطبعت ترجمته الإنجليزية فى كلكتا بالهند ، وظهر فى مجلة :
« Journal of Bengal Asiatic Society »

ويقال أن مالك بن فهم قد امتد حكمه زهاء سبعين عاماً ، وأنه عاش حتى بلغ ١٢٠ سنة من العمر ، وقد جاءت وفاته غيلة على يد أصغر أبنائه وأحبهم إلى قلبه « سليمة » الذى هرب من البلاد بعد الحادث إلى كرمان .

ولا يوجد دليل على الأحداث التى شهدتها عمان فى أعقاب وفاة مالك ، وإن كان من المرجح أن أبناءه ظلوا يتناوبون الحكم إلى أن انتقل منهم إلى أسرة أخرى من الحكام ، هى أسرة بنى شمس ،

وهى فرع من قبيلة الأزد التى وفدت إلى عمان بعد وصول مالك اليها وكان يتزعمها معولة بن شمس .

ولا تتحدث السجلات التاريخية عن الكيفية التى تم بها انتقال الحكم إلى أسرة بنى شمس ، وكل ما نعرفه عن الموضوع ما ورد على لسان المؤرخ العمانى السالمى الذى يقول : « إن أول ملك يتولى الحكم من هذه القبيلة هو عبد العز بن معولة بن شمس ، ويصفه بأنه كان حاكماً قوياً ونشطاً ، امتد حكمه إلى أبعد من اليمامة والبحرين » .

على أن كتب التاريخ تتحدث عن أسرة بنى شمس فتقول أنها استمرت تحكم البلاد حتى ظهور النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان يحكمها يومئذ جيفر وعبد إبنا الجلندى بن المستكبر .

ولا نعرف على وجه الدقة ما إذا كان هذا الحاكم قد أسلم مع من أسلم أم لا ، وإن كانت بعض الروايات ترجح أنه توفى قبل دخول العمانيين إلى الإسلام .

وعلى أية حال فإن العمانيين اعتنقوا الإسلام خلال حكم الأميرين جيفر وعبد ابنى الجلندى ، وهذا يميط اللثام عن كيفية دخول العمانيين إلى الإسلام .

وقد نلتزم هنا بالاعتماد على المؤرخين العرب الذين تطرقوا إلى

هذا التاريخ بكثير من الإنصاف والإدراك رغم اختلاف التفسيرات والتأويلات ، ومن هنا يمكننا أن نثق فى أقوالهم بشكل عام .

وهناك أكثر من رواية عن كيفية دخول العمانيين إلى الإسلام ، إذ يقال أن مازن بن غضوبة هو أول من اعتنق الإسلام ، وكان من سكان سمايل فى الجزء الداخلى من البلاد .

وتقول الرواية أن مازن بعد أن علم بأمر الدعوة الإسلامية سافر إلى المدينة وأسلم على يدى الرسول صلاة الله وسلامه عليه ، ثم تبعه عدد آخر من العمانيين .

كذلك من المحتمل أن يكون بعض العمانيين قد أسلم قبل وصول عمرو بن العاص مبعوثاً من النبى صلى الله عليه وسلم إلى عمان ، وكان على حكم البلاد يومئذ عبد وجيفر إبنا الجلندى اللذان خلفا أباهما على الحكم .

وقبل أن نأتى على ذكر قصة عمرو بن العاص يجدر بنا أن نتعرف على الوضع العام فى عمان قبيل دخول الإسلام . وتذكر كتب التاريخ أن قبائل من الأزد وعدنان بزعامة الأميرين عبد وجيفر كانت تحكم البلاد فى ذلك الوقت ، وأنه وفقاً لبنود الهدنة القائمة بين العمانيين والفرس يومئذ كان الفرس يحتفظون بحامية

عسكرية لهم قوامها أربعة آلاف رجل ، وكانت تعسكر فى حمستجرد قرب صحار كما كانت هناك أقليات من المسيحيين واليهود ، وربما كان السواد الأعظم من سكان عمان يعبدون الأصنام .

وكما ورد فى التاريخ الإسلامى فإن النبى محمداً صلى الله عليه وسلم قد أوفد عمرو بن العاص رسولا إلى عمان بكتاب منه إلى حاكميها عبد وجيفر ، وذلك فى العام الهجرى التاسع ، يدعوهما إلى الإسلام ويروى السالمى عن الوافدين نص خطاب الرسول إلى أهل عمان : —

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى —

السلام على من اتبع الهدى .

أما بعد فإنى أدعوكما بدعاية الإسلام أسلما تسلما فإنى رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، وأنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما ، وإن أبيتما فإن ملككما زائل عنكما وخيلى تطأ ساحتكما وتظهر نبوتى على ملككما » .

وكان الكتاب يحمل ختم النبوة الذى يقول « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

وربما كان هذا ما دفع بعض المناهضين للإسلام ، إلى إتهام العمانيين بأنهم لم يعتنقوا الإسلام من منطلق الإيمان به ، وإنما خوفاً منه وبدافع المصلحة والضرورة ، وأنه بعد أن رأى العمانيون كيف انتصر محمد صلى الله عليه وسلم على اعتداء بنى قومه عليه وعلى رسالته النبوية ، خشوا من زحف قوات المسلمين على بلادهم ، كما أنهم وجدوا فى جيوش المسلمين سنداً لهم فى مقاومتهم للإحتلال الفارسى للبلاد . على أن هذه مجرد تكهنات ليس لها ما يبررها .

والحقيقة هى أن العمانيين بعد التشاور بين زعماء البلاد وكبارها وعلى الأخص بعد التحقق من هوية الرسالة النبوية والتعاليم التى كان يبشر بها هذا الدين ، اتخذوا بالاشتراك مع كافة الزعماء قراراً جماعياً بقبول الإسلام ديناً حنيفاً والإلتزام بتعاليمه السمحاء .

وبالنسبة للحامية الفارسية ، فإنها عندما رفضت الدخول فى الإسلام ، قام الأزد أنفسهم بطردهم من البلاد ، وبدون أى مساعدة عسكرية من أية جهة أخرى .

وعلى ذلك فلقد جاء الإسلام إلى عمان ليبقى وينتشر . ولما كان جيفر وعبد نفساهما قد آمنا به ، فإنهما ناشدا القبائل أن تحذو حذوها .

ولابد أن نسلم بأنه كان بديهياً أن يستغرق تحول عمان كلها إلى

الإسلام بعض الوقت ، وأن تندثر بصعوبة بعض التقاليد القائمة من قبل مجىء الإسلام ..

ولم يكن ذلك ليتحقق إلا بعد قدر كبير من شرح تعاليم الإسلام، ولذلك عرف عن العمانيين فيما بعد تمسكهم الشديد بالعقيدةالإسلامية والمشاركة فى نشرها .

وبدأ الأتباع الجدد للإسلام يتشربون تعاليم الدين الجديد من المبعوث الذى أوفد إليهم لدعوتهم إليه ، وهو عمرو بن العاص الذى أقام فى عمان حتى غادرها عند سماعه بوفاة النبى .

وإذا افترضنا أن تاريخ وصول عمرو إلى عمان — فى العام التاسع من الهجرة — كان صحيحاً ، فإن معنى ذلك أنه بقى فى عمان لفترة لا تقل عن عامين ، كأخ مسلم يلقى الترحيب ، وكشخصية لها إحترامها الكبير ، وخلال هذه الفترة ، أوصل إلى شعب عمان بقدر ما يستطيع تعاليم عقيدتهم الجديدة .

وعندما اضطرته وفاة النبى إلى الرحيل ، صحبه عبد وعدد من كبار شخصيات عمان ، ومجموعة من رجال الأزد .

وأمام المهاجرين والأنصار ألقى سيدنا أبو بكر كلمة ترحيب بالوفد العمانى قال فيها : يا أهل عمان ، إنكم أسلمتم طوعاً ، ولم يطأ

رسول الله ساحتكم بخف ولا حافر ، ولا جشمتموه ما جشمه غيركم من العرب بفرقة ولا تشتت شمل ، فجمع الله شملكم على خير ، ثم بعث إليكم عمرو بن العاص بلا جيش ولا سلاح فاجبتموه إذ دعاكم على بعد داركم وأطعتموه إذ أمركم على كثرة عددكم ، فأى فضل أبر من فضلكم وأى فعل أشرف من فعلكم . كفاكم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم شرفاً إلى يوم الميعاد . ثم أقام فيكم عمرو ما أقام مكرماً ، ورحل عنكم إذ رحل مسلماً . وقد من الله عنكم باسلام عبد وجيفر ابنى الجلندى ، وأعزكم الله به وأعزه بكم . وكنتم على خير حال حتى أتتكم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأظهرتم ما يضاعف فضلكم ، وقمتم مقاماً حمدناكم فيه وشحتم بالنصيحة وشاركتم بالنفس والمال فيثبت الله ألسنتكم ويهدى قلوبكم .

ولقد كانت العلاقات بين عمان والمدينة على أفضل حال فى عهد الخليفة أبو بكر ، باستثناء حادثة واحدة كانت وما تزال محل جدل ، وأعنى بذلك معركة دبا — وهى بلدة قريبة من صحار . . شمال غربى مسقط .

فلدينا رواية عن معركة عنيفة دارت فى هذه البلدة بين قوات المسلمين بقيادة الأميرين عبد وجعفر ، وبين قوات « المرتدين » . .

الذين ارتدوا عن الإسلام بعد وفاة النبي ، فى عهد أبو بكر بقيادة شخص يدعى « ذو التاج لقيط بن مالك الأزدى » ، وهو الذى نادى بنفسه نبياً ، طبقاً لهذه الرواية .

ومصدر هذه الرواية هو المؤرخ العربى الشهير ابن الأثير ، الذى نقل « مايلز » عنه بافاضة ، وليس بمجرد عبارات أو تلميحات قليلة .

وعلى سبيل المثال فإن مايلز يقول — وأنا هنا أنقل عنه — رغم أن ممثلى الغالبية العظمى من قبائل عمان الذين اجتمعوا فى نزوى ، قد قرروا إطاعة النبى الجديد والتمسك بدعوته ، فإن بعض القبائل كانت فى عزلة تامة عن الحركة الجديدة . ومن بين قبائل الأزد الذين كان متوقعاً أن يتبعوا قيادة رؤسائهم القبليين ، ظل بعضهم متمسكاً بعقائدهم الوثنية ، وظهر من بينهم قائد جديد طامع ومغامر يقود معارضتهم لإبنى الجلندى .

ولقد كان هذا القائد هو ذو التاج لقيط بن مالك — أحد شيوخ الأزد — ولكنه من قبيلة غير معروفة ، وقد عارض قبول أتباعه للتعاليم الجديدة التى أتى بها عمرو بن العاص .

ويستطرد قائلا : « بعد أقل من عامين من عودة الوفد (يعنى

الوفد العمانى إلى النبى) ، فإن محمداً صلى الله عليه وسلم المصلح العظيم والداعى إلى التوحيد ، قد مرض ومات فى العام الحادى عشر للهجرة . وفى ذلك الوقت كانت كل القبائل والأراضى العربية تحت طاعته ، ولكن مد الانتصار لم يكن قد بدأ يتدفق خارج حدود الجزيرة العربية .

كانت وفاة النبى صدمة للمؤمنين بالوحى الإلهى ، كادت تهز أركان الدين الجديد . وانفجر التمرد فى الحال فى كل المناطق النائية من الجزيرة العربية ، وكذلك فى أماكن قريبة من المدينة .

وثار التمرد فى عمان مثلما حدث فى بقية الأجزاء ، وسارع عمرو بن العاص بالعودة إلى الحجاز للإبلاغ عما حدث .

ويقول مايلز هذا القول فى موضع ، ولكنه يعترف فى موضع آخر بأن « الأميرين ولدى الجلندى ظلا متمسكين بموقفهما ، مع تشبث كثير من القبائل بشدة باسلامها » .

وقبل أن نستطرد ، يجب أن نحاول تحليل الموقف قليلا .

فإن القول بأن وفاة النبى كانت صدمة للمؤمنين بالوحى الإلهى لا يمكن أن يمر بدون تفنيد .

ذلك أن المؤمنين الصادقين كانوا يعلمون ويسلمون من البداية

بأن النبي محمداً صلى الله عليه وسلم عرضة للموت ، وأنه سيرحل عن هذا العالم فى يوم من الأيام .

وهذا أمر يتفق مع تعاليم القرآن الكريم فى قوله تعالى : —

« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفئن مات أوْ قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين » .

وهذه الآية ذاتها هى التى استشهد بها سيدنا أبو بكر وهو يذكر مسلمى المدينة بأن وفاة النبى ليست نهاية الإسلام . كما قال لهم بعبارات لا لبس فيها : « من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فإن الله حى لا يموت » .

ومن المؤكد أن خبر وفاة النبى كان خبراً محزناً للمؤمنين ، ولكنه لم يكن له وقع الصدمة بالطريقة التى ذكرها بها مايلز .

وهؤلاء الذين انهار إيمانهم بعد وفاة النبى ، لابد وأن وراءهم دوافع أخرى .

أما الحديث عن التمرد ضد الإسلام ، والذى افترض أنه يقصد به انهيار العقيدة بين المرتدين ، فقد أوردها بطريقة توحى بأن كل العمانيين قد ارتدوا ، بينما هو نفسه يعترف بأن عبد وجيفر ظلا على

إيمانهما القوى ، وأن كثيراً من القبائل تمسكت بشدة بالإسلام :
أى تناقض فى العبارات هذا ؟! ..

إن عمان كدولة تحت حكم أميريها (عبد وجيفر) قد تمسكت بشدة بالإسلام فى وقت حرج ، ولو كان إيمان العمانيين بالدين الجديد موضع جدل ، لأصبح فى إمكانهم التحول إلى مرتدين وقطع علاقاتهم مع المدينة ، ومواجهة النتائج ، ولكن ذلك ما لم يفعلوه ، لأنهم قبلوا الإسلام مختارين وباقتناع كامل .

والشخص الذى يفترض — طبقاً لرواية ابن الأثير — أنه قاد معركة دبا ضد المسلمين مشكوك فى أصل نسبه . بل إن مايلز نفسه يقول أن قبيلته غير معروفة ، رغم أنه يزعم وجود صلات له بالأزد . ثم أن اسمه غير شائع بين القبائل العمانية ، ويعترف مايلز بأنه لم يعتنق الإسلام أبداً .. وبالتالى لا يمكن أن يكون مرتداً .

وبعبارة أخرى — لا يمكن أن يقال عنة أنه تخلى عن عقيدة لم يكن قد اعتنقها من قبل . أما عن معركة دبا التى قيل أنها وقعت بين مسلمين ومرتدين ، فأمر مشكوك فيه ، ولم يكن مقبولا من جانب المؤرخين العمانيين .

والمؤرخ السالمى يدحض بشكل قاطع رواية ذى التاج ، ويستند

إلى مصدرين وثيقين ، ليوضح حقيقة ما حدث فى دبا ، طبقاً لما ذكره العويتى فى كتابه الأنساب ، فإن حادثة دبا وقعت فى نهاية خلافة أبى بكر تقريباً ، عندما أرسل حذيفة ابن محصين الغلفانى إلى عمان لجمع الصدقة .

وفى دبا ، طلب جامعو الصدقة من نسل الحارث بن مالك ابن فهم دفع الصدقة ، وعندما اقتربوا من امرأة طالبين منها شاة مسنة عرضت أن تقدم عتوداً أو عناقاً بدلا من الشاة . ولكنهم رفضوا وأخذوا ما أرادوا . وصرخت المرأة قائلة « يا آل مالك .. » وعندما سمعها حذيفة اعتبرها دعوة جاهلية ، وخشى أن يكون هؤلاء الناس قد تركوا الإسلام ، فأغار عليهم وأخذ منهم بعض السبايا معه إلى المدينة .

وتستطرد هذه الرواية قائلة بعد هذه الحادثة ، قام وفد مكون من سبيعة بن عراك الصيلمى ، والمعلا بن سعد الحمامى ، والحارث ابن كلثوم الحديدى ، بالسفر إلى المدينة ليشرحوا لسيدنا أبى بكر حقيقة ما حدث ، وليؤكدوا له أن أهل دبا لم يتخلوا عىعقيدتهم ، وأنهم لم يمنعوا الصدقة ، بل قد عجل عليهم حذيفة ، واستطردوا قائلين : وكففنا أيدينا إلى أن آتيناك . وبعد بعض المداولات أمر عمر برد السبايا إلى عمان .

وطبقاً لرواية الشيخ خلف بن زياد البحرانى ، فإن سيدناأبا بكر أوفد البعض إلى عمان لجمع الصدقة ، وأن العمانيين جميعاً أعطوا الصدقة باستثناء امرأة من أهل دبا شاجرت بعض جامعى الصدقة ، وزعمت أنهم أخذوا كل ما كان مقرراً أن تدفعه لهم . ولكنهم تمسكوا بأن عليها أن تدفع أكثر . فتنازعا فى ذلك فقرعها أحدهم قرعة ، فاستغاثت ببعض أهلها ، فأغاثوها ، وتواقعوا مع الذى قرعها ومن معه ، وتنادوا عند ذلك يا « آل بنى فلان » .

قال الشيخ خلف وكانت دعوة جاهلية ، ويقال أن من دعا بها حل دمه حين يدعو بها أو يتوب . فاقتتلوا ما شاء الله وظهر جامعو الصدقة عليهم ، وجاء حذيفة الغلفانى وكان ولى ذلك فسبى أهل دبا ، وفيهم ذرية من لم يقاتلهم من النساء والولدان ، وذرية من كان قد غاب أو كان قد مات وهو مسلم ونساؤه .

وهؤلاء الناس لم يحدث أن تخلوا عن الإسلام قط ، كما لم يمتنعوا عن دفع الصدقة ، وتقول هذه الرواية أن حذيفة سبى كل أهل دبا ، كما تردد أيضاً أن سيدنا عمر هو الذى أمر باطلاق سراح السبايا ، وأنه أعطى كل واحد منهم تعويضاً قدره ثلاثمائة درهم ، ويبدو أن هناك دلالات قوية على أن حذيفة ظل بعد ذلك يحكم عمان ممثلا للخليفة .

وأثناء فترة خلافة عمر وضعت عمان تحت حكم عثمان بن العاص الثقفى ، الذى كان مقره فى البحرين .

وطوال هذا الوقت كان يحكم عمان عبد وجيفر ، اللذان كانت علاقتهما على أفضل ما يكون مع أبى بكر وعمر ، وتمسك الإثنان بالولاء التام لكل من الخليفة أبى بكر والخليفة عمر ، وأرسلا الصدقة السنوية بلا أى نكوص .

ويمكن وصف عهد عبد وجيفر بأنه عهد سلام ، ورخاء ، وتمسك بأهداف الدين ، وأنه شهد بداية رعاية النهضة الأدبية .

وليس هناك سجل عن وقت وفاة عبد ، ولكن يبدو أنه مات قبل جيفر ، لأنه عندما مات جيفر فى نزوى فى العام الثلاثين للهجرة فإن عباد — ابن أخيه — هو الذى تولى الحكم ، أثناء خلافة عثمان .

وبالرجوع إلى كتاب الشيخ سالم بن سليمان الحارثى « العقود الفضية فى أصول الأباضية » ، فإنه يحدثنا عن أنه وفقاً لما ذكره المؤرخون العمانيون ، فإن أبا بكر ترك جيفر وأخاه يحكمان عمان ، وجعل لهما أخذ الصدقات من أهلها وحملها إليه ، ولم يزالا فى عمان متقدمين إلى أن ماتا . ثم خلفهما عباد بن الجلندى (ربما هو فى الحقيقة حفيده) خلال فترة خلافة عثمان وعلى . وعندما دب الخلاف ،

وانتقل الأمر إلى يد معاوية ، فإن عمان لم تخضع لحكم معاوية إلى أن جاء عبد الملك بن مروان إلى الحكم واستعمل الحجاج على العراق، وكان سليمان وسعيد ولدا عباد يحكمان عمان ، واحتل الأمويون عمان.

واستمر هذا الاحتلال حتى مجيء حكم العباسيين عندما تولى عبد الله بن محمد السفاح السلطة ، وأصبح أول حاكم عباسي ، وقد عين عمه سليمان بن علي واليا على البصرة مع تبعية البحرين وعمان لها . وقام سليمان بدوره بتعيين جناح بن عباد الهنائي كنائب له على عمان .

وكانت هذه الفترة بالنسبة لعمان فترة نزاع وخلافات بالمقارنة بفترة الهدوء ، والرخاء ، والازدهار الثقافي ، وهي الفترة التي سبقت احتلال الحجاج للبلاد .. وكانت فترة تناقضات نتجت عن معركة صفين بين قوات علي ومعاوية ، والتي أدت إلى خلافات مذهبية ، وإلى خسائر مؤسفة في الأرواح .

ومع أن موضوع هذه التناقضات ليس وارداً في صلب هذه المحاضرة التي لا تهدف إلى الخوض في جدل مذهبي ، إلا أنه من الضروري أن نستعرض الموقف كما تأثرت به عمان من وجهة النظر الدينية .

ونكون قد إلتزمنا الصواب بعدم توريط أنفسنا فى قصص عن المعارك والانتصارات ، حيث لا أعتقد أننا جئنا هنا لكى نفعل ذلك، وكل ما أرغب فى محاولة القيام به ، هو أن أوضح كيف خرجت عمان من هذه الخلافات بوحدة مذهبية كانت عرضة لتحريفات كثيرة .

فبعد معركة نهروان ، تشتت الخوارج ، ولا يوجد أى دليل يشير إلى أن أى قوات عمانية قد اشتركت فى هذه المعركة ... ويفترض أن بعضهم قد هرب إلى عمان .

أما كيف جاء ارتباط الأباضيين العمانيين بالخوارج ، فهذا ما يحتاج إلى تفسير ، كما يلزم تحديد المعنى التام لكلمة خوارج ، كذلك يجب دراسة وجهة النظر الأباضية فى هذا الأمر دراسة موضوعية ، وبكل تجرد .

ذلك أن إصدار حكم على أناس بصورة عاطفية ، وتوجيه أصبع الاتهام إليهم بدون الرجوع إلى الحقائق ، هو قول لا يؤخذ به ، واتهامهم بالهرطقة ، هو إتهام لا يمكن اغتفاره .

ومما يؤسف له أن كاتباً له مكانة مايلز ، يلجأ إلى وصف الأباضيين بالهراطقة بدون أى أساس ، وانى لأتساءل عما إذا كان يدرك بالفعل مضامين هذه الكلمة التى يعرف هو معناها كما هو

وارد فى قاموس أكسفورد « التعارض مع العقيدة السائدة أو التقليدية »

وعلى ذلك ، فإن مايلز عندما يستخدم هذه الكلمة مشيراً إلى الأباضيين ، لابد وأنه كان يعنى أنهم يحملون أفكاراً متعارضة مع العقيدة الإسلامية .

وكيف يمكن أن يكون الأباضيون هراطقة فى حين أن مذهبهم قائم على القرآن والسنة ، والإجماع والقياس . ورغم وجود بعض الخلافات فى التفسير بينهم وبين المذاهب الأخرى ، وهو أمر شائع عند المسلمين وعند غيرهم من أصحاب الديانات ، ورغم أنهم كانوا رافضين للسلطة المركزية للخلفاء الأمويين والعباسيين ، فإن الأباضيين ظلوا مسلمين أقوياء الإيمان منذ عهد عبد وجيفر ، ولم يخرجوا أبداً عن العقيدة الإسلامية .

وإذا كان هناك محل لاتهامهم ، فهو إتهامهم بالتشدد فى إيمانهم ، وهذا هو ما اتهمهم به أخيراً مؤلفون عديدون . أما كيف يمكن أن يكونوا هراطقة ومؤمنين شديدى التمسك باسلامهم ، فهذا ما لا يمكن أن يكون منطقياً .

والمذهب الأباضى هو من أقل المذاهب التى تلقى فهماً فى العالم الإسلامى ، ولما كانت غالبيتهم يقيمون فى عمان ، فإن من الأجدر بنا

أن نحاول تفسير تعاليم هذا المذهب ، وما يمثله بالنسبة للإخوة المسلمين . وبالنسبة لغير المسلمين من المهتمين بهذا الأمر ، وهدفنا الوحيد من ذلك هو أننا نريد أن نبدد سحب سوء الفهم التى تخيم فوق الأباضية .

وبصرف النظر عن أى خلافات تكون قد قامت بين المسلمين وبعضهم فى الماضى ، فإن العالم الإسلامى اليوم يعمل من أجل تضامن شعوبه ، ويجب أن تكون الخلافات فى التفسير دافعاً أكثر منها عائقاً ، كما يجب أن تسود مجتمعاتنا روح الحج ، وهى روح ذلك اليوم الذى يلتقى فيه ما لا يقل عن مليون مسلم سنوياً ، يلبون جميعاً نداء الخالق فى صوت واحد « لبيك اللهم لبيك » .

وقد قيل أن الأباضيين فئة من الخوارج ، ولكن الدراسة الدقيقة لابد وأن توضح أن الشىء الوحيد الذى يربط الأباضيين بالخوارج هو رفضهم المشترك للتحكيم . وبخلاف ذلك فإن الأباضيين لا يقبلون وصفهم بأنهم خوارج حسب المفهوم الشائع لهذه الكلمة .

وفى الماضى كانت كلمة خوارج تستخدم ، إشارة إلى هؤلاء المسلمين الذين خرجوا للقتال فى سبيل الله ، ولكن معناها تحول تدريجياً إلى هذا المعنى المشوه لتصبح وصمة . وهذه الوصمة هى

التى يرفضها الأباضيون ، والخلاف الرئيسى فى التفسير بين الأباضيين والخوارج هو الذى قدمه بوضوح الشيخ أبو إسحق إبراهيم الجزيرى والشيخ عبد الله بن حميد السالمى ، والشيخ سالم بن حمد بن سليمان الحارثى .

ويمكن العثور على ذلك فى كتب « تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان و« العقود الفضية فى أصول الأباضية » ، كما نشر تفسير مختصر فى كتاب «كتاب الوضع » للشيخ أبى زكريا يحيى بن أبى الخير الجنانى من نفوسا فى ليبيا .

والدخول فى تفصيلات هذه الخلافات سوف يأخذ من وقتنا أكثر مما هو متاح ، ويمكن لمن يهمه متابعة هذه المسألة ، الرجوع إلى الكتب المشار إليها ، والتى أستطيع أن أؤكد أنها ستزوده بغذاء وفير للفكر .

وقد يقال أن الخلافات جوهرية وفلسفية وأنها أساساً فى مجال التفسيرات ، ومن هذه الخلافات فى التفسيرات نشأ عدد من الخلافات الأخرى المترتبة عليها ، فى مجال تطبيق النظريات المفسرة .

ولا أنوى الخوض فى مناقشة حول الخلافات بين المسلمين ، وكل ما أبغيه هو توضيح موقف الأباضية فى مواجهة الخوارج بدون

أى محاولة لإصدار أحكام ، لأن الحكم فى مثل هذه الأمور لله وحده .

فى فترة حكم الأمويين أصبحت البصرة مركزاً رئيسياً للديانة الإسلامية ، وإذا كان يحق الافتراض بأن الأباضية كانت قد ولدت كمذهب ، فإنه يحق أيضاً الافتراض بأن ولادتها قد تمت فى البصرة ، وإذا أسلمنا بأن الأباضية ولدت فى البصرة ، فلابد وأن نسرع بالإشارة إلى أن العمل بها قد تم فى المدينة ، ولدينا مثل يقول « باض العلم فى المدينة ، وفرخ فى البصرة ، وطار إلى عمان » .

وعندئذ قد يقول قائل إن الأباضية فى عمان هى قديمة قدم الإسلام نفسه ، ويقول السالمى أن الأباضية ملتصقة بالعقيدة الأصلية وأنها لم تغير شيئاً .

وهذا هو سبب وصف الأباضيين فى عمان بأنهم متشددون فى عقيدتهم ورافضون للتغيير ، وهو ما أرجعه بعض الكتاب الغربيين إلى عدم التفتح على الفنون والأفكار الحديثة لدى شعب عمان ، وتلك فكرة خاطئة نسفتها التطورات الأخيرة .

ولنحاول الآن أن نتخيل كيف « طار طائر المعرفة الإسلامية إلى عمان » وهناك ما يشير إلى الروابط القديمة بين المدينة وعمان ، وكيف شرب شعب عمان من منهل الإسلام ومن مصدره الأساسى .

فبعد عمرو بن العــاص استمر العمانيون على صلة مستمرة بالصحابة ، وتعلموا منهم الكثير عن الإسلام ، ومن خلال هذه الصلة برز فقيه شهير اسمه جابر بن زيد ، ولد بقرية صغيرة تسمى « فرق » قرب نزوى .

ويقال أن تاريخ مولده يتراوح بين العام ١٨ والعام ٢١ بعد الهجرة ، خلال فترة خلافة عمر بن الخطاب ، ويمكن القول بأن جابر هو حجر الأساس للأباضية . وقد أمضى طفولته فى مسقط رأسه ، وأظهر رغبة واضحة فى التعلم . وقد درس القرآن وهو صغير ، وتبحر بعمق فى الفقه ، وكان تعطشه للعلم لا يروى .. وغادر عمان وذهب إلى البصرة ، التى سبق أن أشرنا إلى أنها كانت مركزاً عظيماً للعلم فى ذلك الحين .

وأمضى بقية حياته بين البصرة والمدينة بشكل جعله على صلة بأكبر فقهاء المسلمين حينذاك ، واستوعب منهم كل ما أمكنه استيعابه من تعاليم العقيدة الإسلامية من كافة جوانبها .

ولقد نسب إليه قوله أنه أدرك سبعين من الذين شاركوا فى موقعة بدر ضمن جنود النبى ، وأنه تعلم منهم كل ما كان ممكنا أن يعلموه إياه ، باستثناء ابن عباس الذى وصه « بالبحر » ،

وقد تعلم منه الكثير ، وكذلك من السيدة عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن أبي هريرة ، وأنس بن مالك ، وأبي سعيد الخدرى وسيدنا على بن أبي طالب ، ومعاوية،وآخرين كثيرين غيرهم .

وقد ورد أن ابن عباس قد قال للناس « اسألوا جابر بن زيد فلو سأله أهل المشرق والمغرب لوسعهم علمه » .

وعندما أشار ابن عباس إلى أهل العراق فى ذلك الوقت ، قال : « عجباً لأهل العراق كيف يحتاجون إلينا ومعهم جابر بن زيد ؟ » .

وكان ذلك فى وقت وجود جابر بالبصرة ، يشرح العقيدة الإسلامية كما تلقاها من معلميه الأصليين .

وقد وصل به الأمر أخيراً إلى أن يصبح هو نفسه معلماً فى البصرة ، وأن يكون له أتباع عديدون ، أصبح عدد منهم فقهاء ، ولقد نهل من علمه أباضيو عمان ، وأباضيو أقطار أخرى كثيرة مثل أقطار شمال أفريقيا ، ويحتاج الأمر أن نشير إلى قلة فقط من هؤلاء : منهم مثلا عبد الله بن أباض ، ومرداس ابن حدير ، اللذان كانا من معاصريه فى البصرة ، وأبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة ، وكلهم من فقهاء الأباضية .

وهؤلاء تبعهم دارسون آخرون ، من تلامذة تلاميذ جابر بن زيد ،

وبينهم شخص يستحق تنويه خاص ، هو الربيع بن حبيب بن عمرو الفراهيدى الأزدى ، الذى أتم الكتاب الشهير « الجامع الصحيح » ، وسلسلة الأقوال المنشورة فى هذا الكتاب هى ما يشار إليه بالثلاثية . وقد اعتمد الربيع بن حبيب أساساً على أبى عبيدة ، وجابر بن زيد ، وعبد الله بن عباس ، والثلاثة معروفون بأماناتهم التى لاتقبل الشك .

وقد نشر السالمى شرحاً لهذا الكتاب الذى صدر فى أربعة أجزاء. وقد كتب عز الدين التنوخى — وهو سنى من دمشق — مقدمة لكتاب السالمى « شرح الجامع الصحيح » قال فيها أن ثلاثية الربيع بن حبيب الأزدى ، وأحاديثها فى مسنده من أصحها رواية وأعلاها سنداً ، ورجال سلسلته الثلاثية الحلقات هم أبو عبيدة التميمى وجابر بن زيد الأزدى والبحر عبد الله بن عباس ، شيخ جابر وغيره من الصحابة وكلهم مشهورون ، بالحفظ والضبط والأمانة والصيانة .

وكان الربيع بن حبيب — نفسه — تلميذاً لأبى عبيدة ضمن مجموعة أخرى من تلاميذه منهم أبو الخطاب المعافرى ، وعبد الرحمن ابن رستم ، وعبد الله بن يحيى الكندى ، والإثنان الأولان هما من أئمة الأباضية فى أفريقيا ، والكندى من أئمتهم فى اليمن ، وهناك إلى الآن مراكز للأباضية فى نفوسا وميزاب فى ليبيا والجزائر .

ولقد قال التنوخي وهو يشير إلى الشرح الذى كتبه السالمى ، أنه واحد من "الفقهاء العمانيين" الذين كتبوا كتباً عديدة ، ولابد أنه كان غزير الثقافة وحاد الذكاء ، بحيث استطاع وضع هذا العدد من الكتب ، خاصة وأنه توفى قبل بلوغه سن الخمسين ، وأنه كان ضريراً منذ طفولته ، وقد أورد التنوخي فى مقدمته ذكر سبعة عشر كتاباً للسالمى .

وعندما تعمق التنوخي فى شرح السالمى ، فإنه تأثر للغاية بعلمه الواسع ، ووضوحه ، وقوة أسلوبه . كما أثرت فيه أيضاً موضوعية السالمى ، كما أن السالمى غير متعصب ، وأنه كان يرجع إلى ما كتب من خارج إطار مذهبه إذا وجد الحق هناك . وقد كان يضع الحق قبل الناحية المذهبية .

ومن كل ذلك يمكننا أن نستخلص أن المذهب الأباضى أقا من إسمه ، لأنه يشتق اسمه من عبد الله بن أباض بن تميم التميمى الذى شب أثناء حكم معاوية بن أبي سفيان ، وعاش إلى وقت عبد الملك بن مروان ، وكان معلماً كبيراً ومسلماً شديد الإيمان ، لم يتهاون فى عقيدته أو يسمح لنفسه بأن تغرقه المغريات الدنيوية .

وكانت عقيدته راسخة ، ولم يعرف الخوف إلا من الله ،

ولم يتردد عن قول الحق أو اللجوء إلى القرآن ، وإلى سنة النبي ، للحفاظ على نقاء الإسلام .

وتعتبر رسالة التأنيب التي وجهها إلى عبد الملك بن مروان ، والتي تعتبر طويلة إلى درجة لا يتناسب مجال هذه المحاضرة للحديث فيها ، تعتبر دليلا كافياً على ذكائه ، وحميته الدينية .

وبإيجاز يمكن القول أن هناك جذوراً للأباضية ، ذلك المذهب الذي يلتزم به غالبية شعب عمان حتى هذه الأيام ، هؤلاء الناس الذين لا يسعون إلا إلى عبادة خالقهم بما يتفق مع كتابه المقدس ، وسنة رسوله ، هؤلاء الناس الذين يسايرون العصر مع المحافظة على قدسية عقيدتهم ، هؤلاء الناس الذين يعتبرون كل المسلمين إخوة لهم في الإسلام ، ويعاملون أصحاب العقائد الأخرى باحترام .

وإن تاريخ الشعب العماني — رغم خلافاته ومنازعاته الداخلية في الماضي — هو تاريخ شعب قد مد يد الصداقة للجميع باستثناء الذين حاولوا أن يسلبوه سيادته ، أو الذين حاولوا أن يفرضوا عليه أفكاراً مناقضة لعقيدته ، كما بلغت إليه من رسول الله عن طريق أتباعه .

ولم يحدث أن كانت العقيدة الإسلامية أو المذهب الأباضي حائلا

دون التعاون الدولى أو التقدم التكنولوجى ، وتشهد على ذلك المعاهدات التى وقعها الحكام المسلمون الأباضيون مع الدول الأوربية على مر التاريخ :

كما أن المبادرة التى اتخذها السيد سعيد بن سلطان بايفاده أول مبعوث عربى إلى الولايات المتحدة عام ١٨٤٠ ، وإلى الملكة فيكتوريا عام ١٨٤٢ ، هى دليل واضح على بعد نظر الحكام العمانيين ، ومدى اهتمامهم باقامة علاقات طيبة خارج الإطار المباشر لمنطقتهم ، وتشجيعهم للصداقة مع شعوب أكثر البلاد بعداً عنهم .

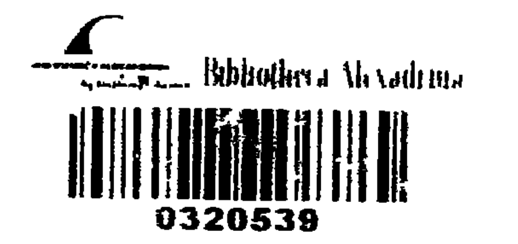
ولم يعرف المذهب الأباضى التعصب أو المغالاة . وهم لا يؤمنون بالعدوان ضد الذين يتبعون طريقاً آخر .

الله ربنا ، ومحمد نبينا ، والقرآن إمامنا ، والسنة طريقنا ، والإسلام ديننا ، ونحن نؤمن بالأمر بالمعروف وإتيانه ، والنهى عن المنكر واجتنابه .



رقم الإيداع بدار الكتب ٤١٢٠ لسنة ١٩٨٠

مطابع سجل العرب
٩ شارع عماد الدين / القاهرة ت ٩٢٢٧٠٦


0320539